مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

التربية عملية حضارية

نظرة تقويمية للأنظمة التعليمية العربية

اننا نصبح احرارا عندما نتعلم كيف نفكر

الدكتور ساطع الراوي
(عضو المجمع)

ان من الصعوبة بمكان مجابهة الموضـــوع المطروح للمناقشة والوفاء بمتطلباته ومعالجة جوانبه المختلفة من دون التعرف على المفاهيم المتضمنة في عنوان الدراسة وهي :

ما مفهوم التربية ؟

ما المقصود بالعملية ؟

ما مفهوم الحضارة ؟

وما الفرق بين الحضارة والثقافة ؟

وعندئذ نحاول الاجابة على بعض الأسئلة التي تطرح نفسها وهي : كيف تكون التربية عماية حضارية ووسيلة من وسائل التغيير الاجتماعي ؟ وأي نوع من التربية هي عملية حضارية وتغيير اجتماعي ؟

وماهي السمات البارزة للتربية التي تصلح ان تكون عملية حضارية ؟

وهل الانظمة التعليمية العربيـــة وسيلة من وسائل التغيير الاجتمـــاعي والمواجهة الحضارية ؟ ام هي عملية نقل واقتباس لبعض الجوانب الحضارية الغربية ؟ كيف يمكن أن توظف التربية العربية للتغيير الاجتمـــاعي والنقلة الحضارية ؟ هذا ما سنحاول ان نعالجه في هذه الدراسة .

اولا ـ التعريف بالمصطلحات والمفاهيم :

١ ـ مفهوم التربية :

لقد اختلف المربّون عبر العصور التاريخية في نظرتهم الى التربية من حيث طبيعتها ووظيفتها . فمنهم من يراها عملية اعداد للحياة العامة ببساطتها ومتطلبات حرفها من خلال الاتصال المباشر بالاقران والكبار بتقليدهم ومحاكاتهم ، ومنهم من يراها عملية تلقين للمعلومات والمعارف من خلال الحفظ والاستظهار عن ظهر قلب بالتكرار والتذكر ، ومن المربين من ذهب الى ان التربية في جوهرها ماهي الا ترويض عقلي وشحذ للقابليات والملكات من خلال تعليم المواد الصعبة كالرياضيات واللغات ،وآخرون ينظرون الى التربية بأنها ترويض اجتماعي بغرس صفات الفروسية والرجولة . كما مرت التربية في عهود قديمة ووسيطة طغت عليها النزعة الى الترويض الروحي والديني من خلال تعليم المبادئ الاخلاقية وغرس القيم الروحية سواء كانت سماوية او وثنية . وقد جاء الاسلام فوفق بين متطلبات الحياة الدنيا والدار الاخرة ، فجمع بينهما بجعل هدف التربية دينية ـ دنيوية ودعا الى استقامة امور الدين واصلاح شؤون الدنيا تجسيداً لقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وتنفيذاً لقول الرسول العظيم (صلعم) « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ». وقد هاجم كثير من المربين المسلمين طريقة النقل والاعتماد على الحفظ في التعليم ودعوا الى العناية بأمر الفهم والنقاش فابن خلدون يرى ان الحوار والمناظرة يفتقان اللسان ويثبتان المعلومات ويكشفان خفيات المعاني ويوضحان دقائق المسائل (١) . وكذلك ابن سحنون الذي اكد طريقة المناظرة والمناقشة والحوار للتعلم والتعليم ، ومن المربين الثائرين على التربية التقليدية وجمودها ممن ارسوا اسس ومبادئ التربية الحديثة

(١) د. محمد المعتصم مجذوب / شخصيات تربوية ص ١٤٢ .

امثال روسو وفرويل وبستا لوزى وديوي وكلباترك فنظرتهم الى التربية بانها عملية تكيف من خلال التفاعل الحي مابين الفرد المتعلم وقدراته الكامنة ، والبيئة بمؤثراتها الطبيعية ، والاجتماعية . والتكيف المقصود يفيد معنى التغيير ، والتغيير في طبيعة الفرد نفسه بتنمية شخصيته المتكاملة جسماً وعقلاً ووجداناً وفي البيئة وعواملها الطبيعية والاجتماعية . ولعل التعريف الاخير في النظر الى التربية بأنها عملية تفاعل بين الفرد وبيئته هو مانتبناه في هذه الدراسة .

٢ ـ مفهوم العملية (Process) :

الحياة بصورة عامة وحدة متكاملة . والامور فيها لاتسير بشكل منعزل ومجزأ وكذلك حياة الانسان كنظام فرعي من الحياة الحياة ـ فهي الاخرى يغلب عليها التكامل والتدخل في مكوناتها فأمور الحياة ليست وحيدة العامل بل متعدد العوامل ومتنوعة الاسباب . فالتأثير والتأثر سمات بارزة في الحياة عامة وحياة الانسان خاصة . وكلما ارتقت حياة الكائن الحي تعددت الاسباب والدوافع المحركة وزادت العوامل تأثراً وتأثيراً . فالعملية هي الوسيلة او الطريقة التي يحدث بواسطتها التفاعل بين عاملين او اكثر لاحداث التغيير او التحول النوعي في طبيعة الاشياء لانتاج الشيء الجديد ـ كما تحدث عمليات تحويل الحديد الى صلب في الصناعة وكما تحدث عملية التغذية والتناسل والتكاثر بالنسبة للحياة الفسيولوجية للكائن الحي كذلك تحدث عمليات التربية والتثقيف والتهذيب والتطبيع بالنسبة للحياة الاجتماعية للانسان كضرورة من ضروريات الحياة ومطلب فرضته حركة التاريخ وتقدم البشرية .

٣ ـ مفهوم الحضارة :

لقد اثارت ظاهرة الحضارة ـ مفهوماً وطبيعة وظيفة ـ جدلا طويلاً لم ينقطع بين علماء الاجتماع والانثر وبواوجي الغربيين . فنشأت المدارس الفكرية المتباينة والمتصارعة في التمييز بين ظاهرتي الحضارة والمدنية . فالمدارس الالمانية

تشير الى الحضارة (Culture) بانها الاصالة الروحيـة والحقيقة الفلسفية والعاطفيـة للانسان ، والمدنية (Civilization) هي النشـاط الانسـاني في غزو ميادين الطبيعة عن طريق العقل في محيط العلم والفنون الصناعية والتخطيط . . فالحضارة هي التراث المدخر المتراكم ، اما المدنية فليست الا قطاعاً من الانشاءات الاجتماعية ، وفي هذا السياق فان الحضارة تتعلق بتقاليد المجتمع الاصلية بينما تكون المدنية نظام دولة . . والمدرسة الفرنسية تصطنع كلمة (Civilization) للحضارة بدل كلمـة (Culture) التي تعنى الثقافة . وتأثرت المدرسة الانجلو سكسونية بذلك فقد فرق ماك ايفر (Mac Ever) بين الحضارة والمدنية بهذه العبارة : الحضارة هي مانحن (Culture is what we are) والمدنية فهي مانستعمل (civilization is what we use) (٢) .

اما المدرسة الامريكية فهي الاخرى تميز بين ظاهرتي الحضارة (Culture) والمدنيـة (Civilization) فبينما تشمل الحضارة النواحي المـادية وغير المادية من معنوية وفكرية وادبية للنشاط الانسـاني ، على النواحي المادية في مجال العلم والتكنولوجيا .

ويبدو ان اللغة العربية لاتواجه مثل هذا اللبس في التمييز بين الحضارة والثقافة ، فالحضارة كما يعرفها الدكتور محيي الدين صابر « هي نظام كلي وشمولي للقيم والمعارف والخبرات ، وان المدنية هي جزء من الحضارة تنشأ في رحابها وتتكيف معها وتتبادل معها التأثير والتأثر » (٣) . فمفهوم الحضارة يتصل بمفهوم الثقافة اتصالاً وثيقاً ، غير انه – يكون بطبيعته – اوسع نطاقا منه واكثر شمولا ، لان الثقافة تنحصر بالامور الذهنية والمعنوية وحدها ، في

(٢) د. محيي الدين صابر / الابعاد الحضارية لاسـتراتيجية العمل العـربي المشترك ، ص ٢ .

(٣) د. محيي الدين صابر ـ نفس المصدر ، ص ٣ .

حين ان الحضارة تشمل الامور المادية والوسائل المادية ايضاً . . . هذا والحضارة تتمثل بأحسن الصور واجلاها في العلوم والصنائع بوجه عام واما الثقافة فتظهر بأجلى مظاهرها في اللغات والاداب بوجه خاص ، ولهذا السبب نجد ان الحضارة تكون بطبيعتها قابلة للانتقال من امة الى اخرى بسهولة وقابلة للانتشار بين الامم بسرعة ، واما الثقافة فتبقى صفة خاصة بكل امة على حدة ، وان اثرت ثقافات الامم المختلفة بعضها في بعض قليلاً او كثيرا (٤) .

ثانيا ـ انماط المؤسسات التربوية :

لعل من نافلة القول ان نؤكد بأن اختلاف الانسان عن الحيوانات اللبونة الاخرى هو في الدرجة لا في النوع ، الا ان مايميز الانسان عما سواه من الحيوانات هو « العقل والقدرة على التفكير » فالحيوانات عموماً تولد وهي مزودة بالفطرة بقدرات غريزية وراثية لتلبية حاجاتها الطبيعية والبيولوجية مما يؤهلها للعيش والتكيف للبيئة الطبيعية المحيطة بها . اما الانسان ذلك الكيان المعقد فهو الاخر يولد مزوداً بالفطرة بقدرات وراثية جسمية وعقلية الا ان هذه الموروثات البيولوجية لا تؤهله للعيش والتوافق الاصيل مع البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة به من دون التدخلات البيئية في العوامل الوراثية لتنميتها وتفتيح قدراتها ، وهنا يأتي دور التربية في بناء الشخصية وتكوين انسانية الفرد . فالشخصية للانسان كما عبر عنها « البورت » هي الانتظام الدينامي في الفرد للاجهزة النفسية والفسيولوجية والذي يحدد توافقاته الاصلية مع بيئته . . . وصياغة بنية الشخصية ماهي إلا حصيلة معقدة لنتاج تفاعل شيئين أساسيين هما العوامل الوراثية ـ البيولوجية والعوامل البيئية الطبيعية والاجتماعية في ضرب الوراثة مع البيئة والفطرة بالاكتساب والنضج بالتعلم . فالانسان يبقى حيواناً بهيماً وكائناً همجياً غير قادر على التكيف لمسايرة الحياة والاستمرار

(٤) ابو خلدون ساطع الحصري « آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة » ص ٤٢ .

في العيش من دون التدخلات البيئية – الاجتماعية والثقافية التي يكون قوامها التربيـــة ، وكذلك المجتمعات البشرية ، تبقى بدائية وهمجية ولايمكن ان تقوم الا بالتربية لنقل التراث الاجتماعي حفاظاً عليه وتجديدا له . . وقد ذهب الامام الغزالي الى القول بانه لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم لانهم يخرجون الناس بالتعليم من الهمجية الى حـــد الانسانية . . . ولان التربيـــة عملية ينتقل بها الانسان من الهمجية الى المدنية . . . ولأن الأطفـــال لايولدون بشراً بل يصيرون بشراً بفضل التربية . . .

وقـــد وضـــع المربيان الامريكيان ثورندياك (Thorndike) وجيتس (Gates) هذه الفكرة في قالب خيالي قائلين « لو انتقـــل سكان الكرة الارضية الى المريخ ، تاركين وراءهم الاطفال الصغار ثم عادوا اليهم بعد عشرين عاماً لوجدوهم قطيعاً من البهائم »(٥) .

والعوامل التربوية في البيئة المؤثرة في تكوين الشخصية وتنشئة الفرد متعددة ومتنوعة ، تحددها طبيعة المجتمع البشري من حيث البساطة والتعقيد وهذه العوامل التربوية يمكن ان تنطوى تحت اطار ثلاثة انماط من التربية هي التربية النظامية (Formal) والتربية غير النظامية (Non - Formal) والتربية اللانظامية (gn - Formal) .

ان مناقشة كل انماط العوامل التربوية من نظامية وغير نظامية ولا نظامية ودراسة تأثيرها في تكوين الشخصية وبناء المجتمعات البشرية وصنع الحياة الحضارية يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً ليس في وسع هذه الورقة تناولها لذا سنقتصر على مناقشة التربية النظامية المقصودة المتمثلة في المدرسة كعملية حضارية وكيف نشأت ؟

---

(٥) جورج شهلا « الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية » ص ٢٣ .

ثالثا ـ التربية النظامية ـ ضرورتها وموقعها في المجتمع :

كان الانسان القديم يعيش عيشة بدائية بسيطة في مجتمع بدائي بسيط وكان الاهل والاقارب والقبيلة هم مصادر التربية فيتعلم الفرد من الاقران والكبار بالتقليد والمحاكاة لفنون الحياة واصولها ومتطلباتها المحدودة ليكيف نفسه للبيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها . ولما تعقدت الحياة وكثرت متطلباتها بفضل التقدم العلمي والتقني والحركات الاجتماعية والثورات السياسية ولم تعد الاسرة والقبيلة قادرة على تحمل مسؤولية تربية الفرد في مساعدته على التكيف والنمو المتوازن مع ميراثه الاجتماعي وبيئته الطبيعية ، وهكذا نشأت المدارس ووجدت ضرورة فردية ، واجتماعية ونقلة حضارية .

ويرى الاستاذ جورج شهلا (٦) ان الفرد يحتاج الى التربية لاسباب جوهرية ثلاثة هي :

١ ـ لان العلم لاينتقل من جيل الى جيل بالوراثة . . والحضارة ليست ميراثا بيولوجيا .

٢ ـ لان الطفل مخلـوق كثير الاتكال قابل للتكيف ، ولعل السبب في ضعفه واتكاليته انه يولد قبل ان يتم نضجه وتكمل قدرته على مجابهة الحياة .

٣ـ لان البيئة البشرية كثيرة التعقيد والتبديل في جميع نواحيها المادية والاجتماعية والروحية وقد طبعت بطابع الحضارة وان العلم في تطور مستمر وسريع بسبب التقدم العلمي .

والمجتمع ايضاً بحاجة الى التربية لانها تساعده على سد حاجتين من حاجاته الاساسية هما :

---

(٦) جورج شهلا / المصدر السابق / ص ٢١ ـ ٢٦ .

– الاحتفاظ بالتراث الثقافي ونقل الثروة الثقافية من جيل الى جيل بربط الحاضر بالماضي ، ولولا هذا الحفظ للتراث لعاد المجتمع الى همجيته وبداوته .
– تعزيز التراث الثقافي وتجديده بربط الحاضر بآفاق المستقبل لمساعدة الفرد على تكيف نفسه وفقاً لعالم الغد والاستعداد لحياته الفضلى .

فاذا صح أن التربية النظامية اصبحت ضرورة فردية لنقل الفرد من حالة الهمجية الى حالة الانسانية ومطلباً اجتماعيا ونقل المجتمع من الحالة البدائية البسيطة الى الحالة التقدمية المعقدة نكون غير مغالين اذا ما جعلنا معيار نهضة الامم وتقدم الشعوب والحكم على مستوى تحضرها يقاس بمقدار تقدم التربية كما ونوعا لان التربية في الاساس صناعة الحياة وبناء الحضارة نقلاً وتعزيزاً وتطوراً وخلقاً . ويذهب ابن خلدون الى ان التعليم وهو واجهة التربية المقصودة ووسيلتها الرئيسية اصبح صناعة ، وازدهار التربية ورقيها يتوقف على العمران والحضارة (٧) فاذا كانت التربية صانعة الحضارة فالحضارة والعمران صانعة التربية والتعليم والتفاعل بينهما عضوياً أثراً و أثيراً و يسترسل ابن خلدون فيقول بأن التخلف العمراني والتأخر الحضاري يسببان ضعف العلم وتدهوره ويؤديان الى سوء حالة التعليم وربما نشأ عنهما تلاشيه . فالتربية والتغير الحضاري جانبان مترابطان ومتفاعلان وهما وجهان لعملة واحدة هي الحياة ووحدتها ، فالتغيير الحضارى والاجتماعي لايمكن ان يستمر سواء اكان سطحياً او جذرياً ثورياً . الا اذا عبر عن نفسه في تصرفات الناس ونظرائهم واهدافهم . والتربية هي الطريق (المضمون) لاستمراره ونموه وزيادته . والنهوض بالكيان الاجتماعي واحداث التغير الحضارى يهيئ بدوره الاجواء الاجتماعية التي تتوافر فيها العدالة والمساواة والمشاركة الايجابية مما يتيح للافراد الفرص المتكافئة الفعالة للانتماء الى مؤسسات التعليم لتنمية قدراتهم وتفجير طاقاتهم لخلق المجتمع المعلم المتعلم . وكلما

(٧) د. محمد المعتصم مجذوب / المصدر السابق ص ١٤٠ .

زادت سرعة التغير الحضارى اشتدت الحاجة الى التجاوب والتفاعل بين التربية والتغيير . اذ تصبح مسؤولية التربية المشاركة في تكوين افكار التغيير الاجتماعي وابرازها . . والبحث عن العمليات والاساليب التي تضمن تنفيذها وتحويلها الى اهداف تربوية وانماط سلوكية مواجهة (٨) .

وكلما بطؤت حركة التغير الحضارى واتجه المجتمع للمحافظة على الوضع القائم والقيم السائدة استجابت المدرسة وجسدت هذه المطالبة في اهدافها حيث تصبح وظيفة التربية المشاركة في الحفاظ على القيم السائدة والتراث الثقافي والدفاع عن النظام السياسي وتدعيم أركان البنى الاجتماعية .

والتجاوب والتفاعل بل التأثر والتأثير بين عوامل التغير والتربية — كما عبر عنه الدكتور محمد هادي عفيفي . (٩) يحدثان في صورة دائرية مستمرة متصلة فاذا كان التغير الاجتماعي سريعاً استجابت المدرسة له وجسدته في اهدافها وبرامجها ، واذا كان بطيئاً انعكس على البرامج التربوية وعملياتها . ويحدد تأثيرها محافظة او تغييراً بسيطاً أو تغييراً جذرياً للمجتمع نوعيةالسلطة السياسية وطبيعة النظام الاجتماعي الموجودة فيه . فكيفما تكن السلطة السياسية ونظامها الاجتماعي تكن الفلسفة التربوية وبالتالي تكون المدرسة — اهدافاً ومحتوى وبرامج وطرقاً. فاذا كان النظام الاجتماعي والسياسي رجعياً محافظاً أوتقراطيا نجد ان المدرسة تعكس خصائصه الرئيسية في المحافظة والنقل ومحاربة الجديد والابداع . . وغيرها . أما اذا كان النظام السياسي تقدمياً شعبياً فنجد على العكس المدرسة تقود حركة التقدم وتشارك في عمليات التجديد والابداع والتحول الاجتماعي لانها المختبر الذي تتحول فيه الافكار والمفاهيم الى واقع وساوك .

---

(٨) د. محمد هادي عفيفي / التربية والتغير الثقافي / ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٩) راجع د. محمد هادي عفيفي / المصدر السابق .

فالتغير يبدأ بالانسان وسيلة ومادة وينتهي بالانسان هدفاً ورسالة . ومادة التربية ووسيلتها في التغير الحضاري ، الانسان الفرد ، وغاية التغير الحضارى هو الانسان الثروة والثورة ، فهو الوسيلة وهو الغاية . والسؤال الذي يطرح نفسه هل كل انواع التربية وانظمتها التعليمية عمليات حضارية تؤدي الى التغيير الاجتماعي والتحول النوعي في العلاقات البشرية لتحقيق سعادة الانسان وتقدم المجتمع ؟ ان الجواب يكون بالايجاب . اذا نظرنا نظرة نسبية الى الغيير واعتبرنا ان المحافظة على التراث والالتزام بنقل التراكمات الحضارية لايخلو من تغيير لان التغيير سنة الحياة وناموسها . اما اذا نظرنا نظرة علمية ووضعنا معايير للحكم على نوعية التربية التي هدفها التغيير الاجتماعي والبناء الحضارى ــ اضافة وانماء ــ فالجواب يكون بالنفي ، مما يستوجب وضع معايير وسمات للحكم على التربية المدرسية التي تصنع الحضارة وتستهدف التغيير الاجتماعي ،وهذا مايجب ان نأخذبه للتمييز بين نوعيات التربية وانماطها .

رابعا ــ السمات الحضارية للتربية :

ان اضفاء السمات الحضارية على العملية التربوية تعنى في جوهرها مدى مساهمة التربية في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري . ولقد تبين لنا من خلال دراسة الجذور الأريخية للتربية ومسيرتها الطويلة ومن خلال استقراء واقع الانظمة التعليمية القائمة في العالم انه ليس هناك اتفاق في وجهات النظر على السمات الحضارية البارزة للتربية التي يؤدي مردودها ونتائجها الى التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري . فهناك من يؤكد من التربويين على ضرورة اعتماد التربية على فلسفة تربوية فردية قوامها المتعلم الفرد كقيمة عليا وكرامة الانسان كهدف سام . وهناك من يؤكد الفلسفة التربوية الاجتماعية التي قوامها الافراد كمجموعة ومجتمعات ،وباعتقادنا ان ازمة التربية تكمن في كيفية التوفيق بين تحقيق الطموحات الفردية وتنمية الميول الخاصة للافراد والاهداف الاجتماعية والمصلحة العامة .

وبصفة أخرى : كيفية تنمية القدرات الفردية وتحقيق شخصية الفرد المتكاملة في اطار اجتماعي وسياق عام بحيث يكون الفرد وسيلة التربية وهدفها وكذلك يكون المجتمع هدف التربية ووسيلتها بتحقيق مصلحة المجتمع من دون التضحية بمصلحة الفرد وعلى حسابه . فجوهر المشكلة الذي أدى الى وقوع التربية بأزمات حادة ومآزق حرجة في الماضي والوقت الحاضر ، يكاد يقلل من شأنها في عملية التغيير واهميتها في التأثير على مصائر الافراد ومستقبل المجتمعات والشعوب ، هو في عملية التوفيق بين هدف الفرد واهداف المجتمع ، بتجنب طغيان دكتاتورية الفرد وانانيته وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وطغيان المجتمع ودكتاتورية النظام الاجتماعي على شخصية الفرد وذوبانها في المجتمع .

ان هذا التحليل يدعونا الى التأكيد على سمتين بارزتين للتربية التي تؤدي الى تغيير اجتماعي وانماء حضاري يستهدف سعادة الفرد وخير المجتمعات كافة والبشرية جمعاء هما :

١ ـ الذاتيـــة :

الانسان اغلى رأسمال في الوجود فهو خليفة الله في أرضه وهو الذي كرّمه الله وفضّله على العالمين فخلقه في احسن تقويم وسخر له الكون وما فيه . فلا غرابة ان تكون اهم سمة حضارية للعملية التربوية التأكيد على تحقيق ذاتية الانسان واصالة الفرد بتنمية قدراته الموروثة وتفجير طاقاته الخلاقة وتكوين شخصيته المتكاملة جسماً وعقلاً ووجدانا . فالانسان ـ الفرد وذاتيته الاصلية ـ هو هدف التربية السامي وهو وسيلتها واداتها ، فهو ركن الحضارة الاساسي وعمادها القويم فبدون تنمية مواهبه المبدعة ورعاية انتاجه الخلاق لاتكون حضارة ولا يكون تقدم للشعوب والبشرية .

٢ ـ الاجتماعية :

ذاتية الانسان وتكوين شخصيته المتكاملة لايتحقق في فراغ بل في بيئة اجتماعية هي المجتمع بجذوره الأريخية ومشاكله المعاصرة وتطلعاته المستقبلية وعليه فان اهم سمة حضارية اخرى ملازمة للاصالة الفردية وتحقيق الذاتية هي اجتماعية التربية . فأي تربية لاتكون اجتماعية في مفهومها واهدافها لايمكن ان تكون ذات خصائص حضارية . فالحضارة هي المجتمع وانتاجاته المبدعة بكل جوانبها المادية والفكرية والادبية والخلقية . فالمجتمع هو مادة التربية ومحتواها الذي تعمل في اطاره وضمن حدوده « فالتربية لاتنهض بمهماتها الحضارية الا بالجمع بين تنشئة الانسان وتنمية مجتمعه وتقدمه . ودلالة التقدم للانسان وللمجتمع انما تكمن في الحضارة ، وللحضارة جوانب تتعلق بالامة ، وجوانب تتعلق بالانسانية فهي ذات خصائص قومية وذات انسانية ، لابد من تلاحمها . وشمولها وتكاملها . تنطلق من الانسان حتى تبلغ الانسانية جميعها وتستعرض بين هذين القطبين حالات حضارية متتابعة تشمل الايمان والعلم والوطنية والقومية والتنمية والعمل والقوة ، و الاصالة والتجديد والتربية مدى الحياة » (١٠) . ولما كانت التربية نظاما فرعيا Sub - System يعمل في اطار نظـام اجتماعي كبي System ويؤثر عليه سلبا وايجابا لذا السؤال الذي يطرح نفسه ما هي الاجواء التي تتطلبها التربية من النظام الاجتماعي وآمال المجتمع » . ان الجو المناسب والمطلوب للتربية لكي تساهم في تحقيق الهدف الفرعي والهدف الاجتماعي والأكيد على ذاتية الفرد واجتماعيته هو جو الديمقراطية بشقيها المتلازمين

---

١٠) د. عبدالعزيز البسام « الاهداف التربوية في القطر العراقي في ضوء معطيات قادسية صدام المجيدة » .
الوقائع الكاملة للندوة العلميـة المنعقدة في بـغداد ٢٦ـ٢٧ شـباط . مديرية التوثيق والدراسات / بغداد عدد ١٩٨٣/١٧٩ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

الديمقراطية السياسية المتمثلة بالحرية ، والديمقراطية الاجتماعية المتمثلة بالعدالة الاجتماعية – الاشتراكية – والتأكيد على الديمقراطية السياسية ومبدأ الحرية الفردية يبرز في أنظمة مجموعة الدول الرأسمالية والتي تتبنى النظام الاقتصادي الحر ، اما دول المنظومة الاشتراكية فيغلب عليها طابع الديمقراطية الاجتماعية ومبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية في اطار ديكتاتورية النظام السياسي والحزب الحاكم .

خامسا – نظرة تقويمية للأنظمة التعليمية العربية :

اذا كانت اهم السمات البارزة في الانظمة التعليمية التي تساهم في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري هما : سمة الذاتية في تكوين الشخصية الاصيلة المتكاملة جسما وعقلاً ووجدانا ، وسمة الاجتماعية في المساهمة في تحقيق اهداف المجتمع وحل مشاكله ، فالسؤال الذي تطرحه الورقة هو : اين تقع الانظمة التعليمية العربية من هاتين السمتين الحضاريتين المتكاملتين ؟

لعلنا لانجافي الحقيقة ولا نظلم الانظمة التعليمية العربية القائمة ، على الرغم مما اصابها في عهود الحكم الوطني من اصلاحات وتحسينات تجديداً في نوعها وتجويداً في كيفها ونموا ملحوظا في كمها ، اذا مانفينا عنها هاتين السمتين الحضاريتين فلقد حل محل تحقيق ذاتية المتعلم الاصيلة العقلانية المتكاملة الشخصية – الفردية والانانية « الشعور بالأنا » والاتكالية والانغلاق ، وحل محل تحقيق الاجتماعية والاهداف القومية والتنموية ، القطرية بتكريس التجزئة وترسيخ السلطة والولاء لأنظمتها . فالأنظمة التعليمية العربية ليست انظمة غربية يغلب عليها الطابع الفردي المؤكد على الديمقراطية السياسية المتمثلة بالحرية وليست شرقية يغلب عليها الطابع الاجتماعي المؤكد على الديمقراطية الاجتماعية المتمثلة في المساواة والعدالة ، انها في واقع الامر – في مجملها – مازال تأرجح من حيث المبدأ والتطبيق بين هذين النمطين من الأنظمة التعليمية العالمية العملاقة .

نظام المجموعة الرأسمالية ونظام المجموعة الاشتراكية تتأثر بعضها بهذا وبعضها بذاك نقلاً واقتباساً يعوزه التطبيع والتكيف ، والاصالة والتأصيل ، والمعاصرة والتحديث مما أدى الى تشويه المفاهيم والمبادئ والانجازات الانسانية التي أتت بها الحضارة المعاصرة لتحديث المجتمعات وتقدمها :

وقد تجسد هذا التشويه في الممارسات والتطبيقات التربوية ، « فالانفصام واضح بين ما هو مكتوب وبين ما يمارس . . فيُعلم الابتكار بوسائل غير ابتكارية والعلم بوسائل غير علمية والوحدة والتنمية بوسائل لاتمت بعلاقة الى هذه الأهداف . . ويؤكد ظاهرة الانفصام بين القول والعمل ما توصل اليه احد اساتذة التربية في عين شمس بقوله : « ليست هناك مبالغة في القول بأنه يصعب ان نجد علاقة واضحة بين ما هو مكتوب في شأن اهداف التعليم في مصر وما يمارس في المدرسة . . فتقع ممارستنا التربوية في خطأ تدريس الابتكار بوسائل غير ابتكارية » (١١) .

« ان الأنظمة التعليمية في الدول العربية اصبحت آلات ميكانيكية ضخمة أو مصانع ضخمة تتلقف الناشئة كما تتلقف المصانع المواد الخام (المدخلات) فتخضعهم لعمليات نسميها تعليما لفترة من السنوات تطول او تقصر ثم تقذف بهم الى الخارج (مخرجات) . . لكن المشكلة الأم ، هي ان الشروط التي تحكم دخولهم وخروجهم والشروط التي تحكم ما يحدث لهم في الداخل والشروط التي تسير العملية التعليمية . . جميعها تتغافل عن شخصية الانسان كمتعلم وكمعلم وكاداري وتربط بين هؤلاء بأربطة هي اقرب الى ما يربط العمال بالمادة الخام والرؤساء بالمرؤوسين . . وقد أدت سيطرة الأجهزة والقوانين

(١١) منير بشور « اتجاهات في التربية العربية » المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وحدة البحوث التربوية ، تونس ١٩٨٢ / ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

والشروط التي تحكم مسيرة التعليم الى تقلص في الحوافز الشخصية للعمل المبدع وتقلصت معها مشاعر الرضا والاكتفاء التي تنبع من داخل العمل التربوي . وتقلصت الجرأة على اتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية ، وتقلصت هوامش الحرية وازداد الاتكال على الدولة والانصياغ لها (١٢) .

يتبين لنا من تحليل واقع الانظمة التعليمية العربية في مجملها انها تجابه مشكلتين حادتين هما : سيطرة الأجهزة والقوانين التي تحكم المسيرة التربوية والانفصام بين النظرية والتطبيق في العملية التربوية . وقد أدت هاتان الظاهرتان الى قصور التربية العربية في تحمل مسؤوليتها التأريخية في تحقيق رسالتها على مستوى الاهداف العامة واهداف المراحل الدراسية وأهداف المواد التعليمية والي تبنتها الدول العربية وصاغتها صياغة واضحة في ضوء استراتيجية تطوير التربية ومبادئها في الديمقراطية بشقيها السياسي المتمثل بالحرية ، والاجتماعي المتمثل بالعدالة والمساواة بالاضافة الى التأكيد على كرامة الانسان واهداف المجتمع في اطار الوطنية والقومية والانسانية التنمية الشاملة والتوفيق بين الاصالة والمعاصرة ، والعلم والعمل والايمان والتربية للقوة للبناء والتربية المستمرة .

ولعل اهم الأسباب التي ادت الى هذا التقصير بل العجز في مساهمة التربية في تحقيق اهدافها الكبرى هو ان تحقيق هذه الأهداف ليست مسؤولية التربية وحدها ، بل هي مسؤولية النظام السياسي والاجهزة الثقافية العاملة في فلكه ، والتربية في واقع الامر ليست الا نظاماً فرعياً وجهازاً ثقافياً تابعاً للنظام السياسي ومسخراً لخدمته والولاء له بترسيخ قيمه واهدافه القطرية ممارسة وتطبيقاً في العملية التربوية الميدانية في المدرسة والصف .

والسؤال الذي يطرح نفسه ولعل في الاجابة عنه تلخيصاً لما جاءت به الورقة : كيف الخروج من هذه الأزمة ؟ وكيف يمكن توظيف التربية

(١٢) منير بشور ـ المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

واستثمار العملية التربوية في اطار واقع البنى الاجتماعي والأنظمة السياسية القائمة في البلاد العربية لتساهم في التغيير الاجتماعي والبنـــاء الحضاري ؟ مع الاحتفاظ والتسليم بصحة الاهداف العامة للتربية وتبنّي استراتيجية التغيير الجذري للانظمة التعليمية العربية ، ومن اجل ان لانبقى مثاليين نعيش عالم التصورات والتنظير على اهميته ، ونشغل انفسنا في الاستراتيجيات ووضع الخطط وصياغة الأهداف التي فرغنا منها ، ومن اجل ان لانتهم بالانهزامية من الواقع والاقتصار على النقد والتحليل والتذرع بالتبريرات والاسقاطات التي تشل العمل وتعطل المسيرة ، نعتقد ان النزول الى الواقع الميداني في تبنى استراتيجية الممكن للتجويد والتجديد باصلاح العملية التربوية في الميدان والتركيز على عناصرها الاساسية – معلما ومتعلما – لتحقيق التعليم الجيد ضمان أكيد للمساهمة في تحقيق الاهداف الفردية والأهداف الاجتماعية التي هي اهداف التربية ورسالتها الأساسية .

ان الأخذ باستراتجية الكيف لتحقيق التعليم الجيد باصلاح العملية التربوية في الميدان لايقع في فراغ بل له شروطه ومتطلباته . ولعل اهم هذه الشروط : هو الثقة بالمتعلم والايمان بقدراته على التعلم والخلق والابداع واتخاذ القرارات وحل المشكلات بتحكيم التفكير التحليلي والحوار والنقاش البناء – أخذاً وعطاءً –

وهذا الشرط لايمكن الوفاء بحقه وتوظيفه في خدمة العملية التربوية اذا لم يتوفر لدى المعلم وادارة المدرسة قسط من الحرية في اتخاذ القرارات والحكم في الاختيار .

نستخلص من هذا العرض بان الأزمة التي تواجة التربية العربية والعملية التربوية تجويداً وتجديداً هو أزمة الحرية في الاختيار والاحتكام الى العقل (١٣) .

(١٣) راجع منير بشور ، المصدر السابق ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

وبذلك تكون المدرسة العربية ليست مصنعا ضخماً ولا آلات ميكانيكية صماء بدون حياة بل مختبراً حياتياً تتفاعل فيه الافكار وتتحاور العقول وتتزاوج فيه النفوس وتتكامل فيه الشخصيات وتنضج عقلا وجسما ووجدانا .

وعندئذ ترتقي المدرسة العربية الى مستوى المشاركة الفعالة في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري فتكتسي العملية التربوية السمات الحضارية في تحقيق ذاتية الفرد واهداف المجتمع لانها لم تعد معملا جامداً بل مختبراً بشريا حيا لخلق الانسان العربي الجديد في تحقيق ذاته والمؤهل للمساهمة في بناء اهداف المجتمع العربي في الوحدة القومية والتنمية الشاملة . فليكن شعارنا قولا وعملا ، الحرية اولا ومنها نبدأ لضمان تربية سليمة لتحقيق حياة كريمة للانسان العربي والمجتمع العربي ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان ويعيش . وطريق الف ميل يبدأ بالخطوة الأولى . والحرية المقيدة بروح المسؤولية هي الخطوة الاولى في طريق معالجة الأزمات والخروج من المآزق التي يجابهها الانسان العربي والمجتمع العربي في التربية والسياسة وغيرها .

★ ★ ★